**الفصل الثالث**

**موجز تاريخ علم النفس واتجاهاته النظرية الأساسية**

**مراحل التطور التاريخي لعلم النفس**

* مرحلة التأثير الفلسفي
* مرحلة تأثير علم وظائف الأعضاء والطب التجريبي
* مرحلة الاستقلال العلمي

**الاتجاهات النظرية العامة لعلماء النفس**

* الاتجاه التحليلي النفسي
* الاتجاه السلوكي
* الاتجاه الجشتالتي
* الاتجاه المعرفي
* الاتجاه الإنساني

**مراحل التطور التاريخي لعلم النفس**

مر مصطلح علم النفس بتطورات متعددة من ناحية طبيعة استخدامه ومضمونه الدلالي وبما يعكس مستوى التطور العلمي والفهم السائد له في الحقب التاريخية المختلفة , ويمكن ايجاز تطور المصطلح عبر التاريخ كما ياتي :

01 **مرحلة الأفكار البدائية** : و التي طبعت حياة الإنسان القديم ويشير المصطلح خلالها الى الاهتمام ب**الروح** التي تهب الإنسان الحياة والروح.

02 **المرحلة المبكرة من الفلسفة** وبخاصة في اليونان ويبرز هنا دراسة أرسطو **للعقل** وأهميته في عملية الإدراك الحسي .

**03 مرحلة عصر النهضة** : واهتمت الفلسفة خلالها على يد الفيلسوف الفرنسي ديكارت بدراسة **الشعور** باستخدام الاستبطان أسلوبا للبحث فيه .

**04 المرحلة التحليلية** : وهيمنت فيها دراسة **اللاشعور** على يد فرويد باستخدام آليات التحليل النفسي المختلفة.

**05 المرحلة السلوكية** : وفيها سادت الطريقة العلمية الموضوعية في دراسة **السلوك** .

وإذا انتقلنا لطبيعة التطورات التي تعرض لها علم النفس ذاته ( وليس المصطلح ) فبالإمكان تأشير المراحل المهمة الآتية :

**أولا : مرحلة التأثير الفلسفي** :

وكانت مرحلة فلسفية تأملية الى حد بعيد , وفي هذه المرحلة التأملية ارتبط نمو علم النفس بالفلسفة بفضل المدرسة الفلسفية اليونانية التي مثلها كل : سقراط , أفلاطون , وأرسطو..والى هذه المدرسة يعزى الفضل في ابتكار مفهوم النفس Psyche لوصف الجوانب اللابدنية من السلوك البشري المتمثل بالعقل او الروح , ويعتبر أرسطو تحديدا هو الأب الفلسفي لعلم النفس وأول من ابتكر مفهوم علم النفس PSYCHOLOGY كمفهوم يدرس الروح Soul .

من جهة أخرى فان الفلسفة اليونانية عوقت من نمو المعرفة العلمية والتجريبية للسلوك الإنساني وعطلت ظهور التيار العلمي التجريبي في العلم الطبيعي والإنساني بوجه عام بسبب تغليب هذه المدرسة للتأمل على التجريب , والمثاليات على الواقع , والمجردات على الوقائع ..وهو ما يفسر تطور المعارف المتعلقة بالرياضيات وبخاصة الهندسة خلال تلك المدة.

وورث العلماء المسلمين التراث التأملي الفلسفي من اليونانيين وادمجوه في كتاباتهم الدينية والأخلاقية ,وظهرت حينها أمثلة مشرقة من الفلاسفة المسلمين حاولوا فهم المشكلات السلوكية بطريقة علمية دلت على فهم واحترام للروح العلمية ومن شواهد ذلك :

* كتاب في الملاخوليا لأحمد ابن أبي الأشعث.
* مقال في مرض المرقية او توهم المرض لسعيد ابن ابي بشر .
* مقال في فقدان الذاكرة لابي جعفر الجزار.

ولابن سينا لمحات ذكية ومحاولات جادة للخروج من الإطار التأملي الفلسفي إلى مجال الممارسة والإبداع في علاج بعض الأمراض النفسية والعقلية بما يجعله من الأطباء النفسيين الأوائل في تاريخ المعرفة البشرية.

**المرحلة الثانية : مرحلة تأثير علم وظائف الأعضاء والطب التجريبي** :

وتمثلت بانفكاك علم النفس عن الفلسفة واللاهوت وارتباطه بدراسات وظائف الأعضاء والطب التجريبي منذ منتصف القرن الثامن عشر , وهي مرحلة تقوم بشكل كبير على المنهج التجريبي وبخاصة في موضوعات الإحساس والإدراك وقدمت في هذه المرحلة دراسات نفسية مهمة منها

* دراسات الإحساس أللمسي لفيبر .
* كتاب أسس علم النفس الفسيولوجي لدراسة التفكير او العقل لوليم فوند.

وساعدت هذه المرحلة على زيادة رصيدنا من المعرفة العلمية بالطبيعة البيولوجية للإنسان وبالعلاقة الوثيقة بين العمليات العضوية والعقلية والتفاعل بين الجسم والنفس.الا ان من عيوب هذه المرحلة التأكيد على عضوية او فسيولوجيا علم النفس وعزو العمليات النفسية الى العوامل العضوية والفسلجية مما خلق اتجاها مضادا لدى علماء النفس ساعد على بلورة استقلال علم النفس منهجا وموضوعا.

**المرحلة الثالثة : مرحلة الاستقلال العلمي** :

وفيها استقل علم النفس في المنهج والموضوع ,وبدأ الباحثون يبتكرون مناهج علمية وأساليب بحث جديدة فضلا عن بلورة بعض الموضوعات المتنوعة والمعقدة في ميدان علم النفس , ولعل من أهم الأحداث التي طبعت هذه المرحلة :

* تأسيس أول معمل (مختبر) لعلم النفس في ألمانيا عام 1879م على يد وليم فوند.
* إصدار وليم فوند لأول مجلة متخصصة بالدراسات التجربيبة في علم النفس تحت مسمى (دراسات فلسفية ) عام 1880م.
* إصدار عالم النفس الأميركي ستانلي هول للمجلة الأميركية لعلم النفس عام 1887م.
* تعيين جامعة بنسلفانيا ل(جيمس ماكين كاتيل ) كأستاذ لعلم النفس عام 1888وهو أول منصب للأستاذية في علم النفس في العالم وكان عالم النفس يعين قبلها في أقسام الفلسفة.
* وخلال المدة 1880 – 1895 م وفي أميركا وحدها حصل ما يأتي :
* تأسيس 24 مختبر نفسي .
* إصدار ثلاث مجلات لعلم النفس .
* إنشاء الرابطة الأميركية لعلم النفس APA .
* تحديد وليم مكدوجل لعلم النفس بانه علم السلوك.

وهكذا مع مطلع القرن العشرين نجح علم النفس في ان يحقق استقلاله عن الفلسفة ويطور معامله التي استخدم فيها الطرق العلمية ويشكل تنظيمه الأكاديمي ويحدد أدواته وطرق بحثه ويعطي لنفسه تعريفا رسميا كعلم هو علم السلوك .

ان النجاح الذي حققه علم النفس الحديث لم يتأت على يد مدرسة او نظرية بعينها ولكن في سياق تطور مدارسه المختلفة تفاضلا وتكاملا بهدف إقراره كنظام معرفي مستقل وسط الأنظمة المعرفية الأخرى (منصور وآخرون 1978 ص32) وأدناه ابرز الاتجاهات النظرية والمدارس الفكرية الفاعلة في علم النفس المعاصر .

**الاتجاهات النظرية العامة لعلماء النفس**

**أولا : الاتجاه التحليلي النفسي** : الذي أسسه الطبيب النفسي النمساوي المعروف سيجموند فرويد Freud وكان لجهوده وجهود يونج Jung وادلر Adler وآخرون الفضل في اكتشاف ان ما يحكم السلوك الظاهري للفرد هو دوافعه اللاشعورية وهي قوى داخلية لا منطقية وغرائز بدائية ( جنسية وعدوانية على وجه التحديد) تساهم في توجيه السلوك البشري والشخصية الإنسانية .ولان هذه الدوافع لا شعورية ومكبوتة منذ الصغر فانه لا يمكن الاطلاع عليها الا من خلال أحلام الفرد وتخيلاته الفردية والأخطاء اللا مقصودة فضلا عن الكشف عنها بمنهج التداعي الحر الذي يساعد على العودة بالشخص الى المراحل المبكرة من الطفولة حيث يمكن للفرد ان يطلع على الأسباب الدفينة والقديمة التي تجعله يتصرف على هذا النحو او ذاك في الصحة او المرض.

وعلى الرغم من اتفاق علماء التحليل النفسي على ان مصادر السلوك والشخصية هي لا شعورية وان خبرات الطفولة تلعب دورا حاسما في تشكيل الشخصية فيما بعد ,فانهم اختلفوا اختلافات شاسعة أثارت فيما بينهم كثيرا من المشاحنات والخصومات (الفكرية)الى حد استقلال معظمهم عن فرويد وتأسيس توجهات نظرية مستقلة عنه (علم النفس التحليلي . علم النفس الفردي .النظرية النفسية الاجتماعية .النظرية النفسية الاجتماعية التاريخية . التحليل النفسي الجديد ......)(إبراهيم 1985 ص54-55)

وينظر للتحليل النفسي بوصفه :

* نظرية في الشخصية .
* نظرية في النمو النفسي .
* طريقة في علاج الأمراض النفسية واضطرابات الشخصية .

وهو ما يجعل من التحليل النفسي واحدة من ابرز مدارس علم النفس التي حددت بقوة شكل علم النفس الحديث.

ويشتمل البناء النظري للتحليل النفسي على المفاهيم الأساسية الآتية :

* بنية الشخصية وتتألف من : الهو id , الأنا ego , الأنا الأعلى super ego .
* بنية الوعي او العقل ويتألف من : الشعور , ما قبل الشعور , اللاشعور .
* القلق العصابي .
* الآليات الدفاعية النفسية مثل :الكبت , الإسقاط , التبرير , رد الفعل العكسي ,الإزاحة , التعويض , النكوص , الإعلاء .
* النمو النفسي الجنسي .(دافيدوف 1983 ص582-588)

ويؤمن العلماء المنضوين في مدرسة التحليل النفسي بالمعتقدات الآتية :

01 على عالم النفس ان يدرس قوانين ومحددات الشخصية السوية واللاسوية مع ابتكار طرق لعلاج اضطرابات الشخصية .

02 تعد كل من : الدوافع اللاشعورية والذكريات والمخاوف والصراعات والاحباطات مظاهر هامة للشخصية وان إخراجها للشعور يعد علاجا حاسما لاضطرابات الشخصية .

03 تتكون الشخصية أثناء الطفولة المبكرة والكشف عن ذكريات السنوات الخمسة الأولى من حياة الفرد يعد أمرا أساسيا للعلاج.

04 تعد العلاقة الوطيدة الطويلة الأجل القائمة بين المريض والمعالج (المحلل النفسي ) أفضل سياق لدراسة الشخصية , وفي اثناء تلك العلاقة يفصح المرضى عن أفكارهم ومشاعرهم وذكرياتهم وتخيلاتهم وأحلامهم ليقوم المعالج بتحليل تلك البيانات وتفسيرها . (دافيدوف 1983ص 41-43 ).

**ثانيا : الاتجاه السلوكي** : وهو اتجاه يرى ان السلوك الإنساني محكوم من الخارج اي من البيئة ,ويمثل هذا الاتجاه كل من بافلوف , واتسن , سكنر, باندورا ..ووسيلة هذا الاتجاه هي البحث العلمي الموضوعي والتجارب العلمية المحكمة والمضبوطة . وندد واتسن 1878-1958 (مؤسس المدرسة السلوكية في اميركا ) باستخدام الطريقة الاستبطانية وبتحليل الخبرة كأدوات بحث في علم النفس كما هو معمول به في التحليل النفسي (وقبلها المدرسة البنيوية والمدرسة الوظيفية ) وذهب الى ان الموضوع الملائم لعلم النفس هو السلوك الذي يمكن ملاحظته.

لقد اختزلت المدرسة السلوكية الموضوعات التي درستها الى العلاقة بين المثير – الاستجابة وهي تؤكد على دور العوامل البيئية في تشكيل السلوك وتغييره وفي طبع الشخصية بسمات محددة من خلال عملية التعلم المستمرة والدائمة ما دام الكائن الحي سليما وحيا ..ويقول واتسن في هذا المعنى قولته المعروفة (أعطني دستة من الأطفال الأصحاء افعل بهم ما شئت ....) .

ويؤمن علماء النفس السلوكيون بالمبادئ الآتية :

01 ضرورة دراسة الأحداث البيئية (المثيرات ) والسلوك الملاحظ (الاستجابات).

02 الخبرة تؤثر في السلوك والقدرات والسمات أكثر من تأثير الوراثة لذا يعد موضوع التعلم موضوعا هاما للبحث العلمي .

03 يجب التخلي عن الاستبطان وإفساح المجال لاستخدام الطرق الموضوعية مثل التجريب , الملاحظة العلمية , والقياس .

04يجب على علماء السلوك وصف السلوك وتفسيره والتنبؤ به وضبطه كما يجب عليهم القيام بالمهام العملية التطبيقية مثل نصح الوالدين والمربين والمعلمين ورجال الأعمال.

05 يجب بحث سلوك الحيوانات البسيطة الى جانب سلوك الإنسان لأنها أيسر في دراستها وفهمها من الكائنات المعقدة .(دافيدوف 1983 ص27-29).(إبراهيم 1985 ص54).

**ثالثا : الاتجاه الجشتالتي في علم النفس**: نسبة الى كلمة جشتلت وهي كلمة ألمانية تعني الشكل او الصيغة الكلية .وهذا الاتجاه يرى ان إدراكنا للأشياء يتم ككل ثم يتميز الى أجزاء , ولهذا غلب أصحاب هذه المدرسة اتجاه النظر للسلوك او الخبرة ككل وليس كجزئيات او وحدات مستقلة كما تفعل المدرسة السلوكية .وقد وضع أصحاب هذه المدرسة عددا من القوانين التي تفسر كيفية إدراك البشر للصيغ المختلفة في البيئة , ومن أهم ممثلي هذه الاتجاه :ماكس فرتهيمر Wertheimer وكيرت كوفكا Kofka وكوهلر Kohler والثلاثة ولدوا بألمانيا. (إبراهيم 1985 ص 56-57).

بدأت الحركة الجشتالتية عام 1912م عندما نشر فرتهيمر 1880-1943 أستاذ علم النفس بجامعة فرانكفورت بألمانيا تقريرا عن بعض الدراسات حول إدراك الحركة الظاهرية ( وهي حركة مدركة في الوقت الذي لا توجد هناك حركة في الواقع ) ووفقا لهذه الحركة تم اشتقاق قانون ان الكل يختلف عن مجموع أجزائه وان الأجزاء يجب النظر إليها في ضوء موضوعها ودورها ووظيفتها في الكل الذي ينتمي إليه والمعاني التي يخلعها الناس على الأشياء والكائنات الموجودة في عالمهم . ومع ان هذا الاتجاه لا وجود مؤثر له في الوقت الحاضر الا ان بعض موضوعاته وأدواته تسللت في الاتجاه الإنساني والاتجاه المعرفي لعلم النفس (دافيدوف 1983 ص 40-41).

**رابعا :الاتجاه المعرفي في علم النفس** : وهو اتجاه رائده العالم السويسري المعروف جان بياجيه Jean Piaget الذي يرى ان عالم النفس عليه ان يهتم بالعمليات المعرفية بوصفها جوانب من السلوك لا يمكن ان تخضع للملاحظة المباشرة مع انها تلعب دورا واضحا ومهما في توجيه السلوك والشخصية والتعلم ..مثل التفكير والذكاء والوعي والقيم والتوقع وهي موضوعات يرى بياجيه إنها تحكم إدراكنا للعالم والبيئة من دون ان يعني ذلك ان البيئة والعالم الخارجي يلعبان دورا سلبيا في نمو وعي الإنسان , وهو وعي يمر بمراحل ارتقائية مختلفة ,ولهذا يتغير إدراك البيئة لدى الشخص بتغيره ونموه ونضجه .(ابراهيم 1985 ص 57-58).

لقد ساعدت المدرسة المعرفية في علم النفس التي بدأت بإسهامات بياجيه وغيره من العلماء في تخطي النظر للإنسان وكأنه صندوق اسود والذي ميز منظور السلوكيين له وهم يؤكدون على أهمية النظر الى ما بداخل هذا الصندوق وفهمه (العمليات العقلية) وتطوير أساليب البحث المناسبة له , وعليه يمكن القول ان علماء النفس المعرفيين يؤمنون بما يأتي :

01 ضرورة دراسة العمليات العقلية المختلفة مثل :التفكير , الادراك , الذاكرة , الانتباه , حل المشكلات , اللغة .

02 أهمية السعي الى اكتساب معلومات دقيقة عن كيفية عمل تلك العمليات وكيفية تطبيقها في الحياة اليومية .

03 يجب استخدام الاستبطان غير الشكلي وبصفة خاصة لتنمية الشعور الحدسي فضلا عن استخدام الطرق الموضوعية لتعزيز وتأكيد مثل هذا الشعور .(دافيدوف 1983 ص 48).

**خامسا : الاتجاه الإنساني في علم النفس** : تبلور الاتجاه الإنساني في علم النفس خلال الربع الأخير من القرن العشرين كقوة ثالثة فاعلة بعد التحليل النفسي (القوة الأولى ) و( السلوكية ) القوة الثانية , ويمثل الاتجاه الإنساني كل من أبراهام ماسلو Maslow وكارل روجرز Rogers واريك فروم Fromm وبيرلز Perlz .والمنطلق الأساسي لهذا التوجه ان الإنسان مدفوع بطبيعته لفعل الخير وهو ينطوي على دافع رئيسي للنمو والارتقاء والإبداع وتحقيق الذات , وعليه تكون الوظيفة الأساسية لعالم النفس هو مساعدة البشر على ان يكتشف كل منهم إمكانياته الحقيقية وإعانته على تحقيقها من خلال التوجيه والإرشاد .(ابراهيم 1985 ص59).

ويؤكد علماء هذا الاتجاه على ما يأتي :

01 على علماء النفس جمع المعلومات على ان يكون هدفهم الرئيس هو تقديم الخدمات بالوصول بالناس إلى حدهم الأقصى وإثراء حياتهم .

02 على علماء النفس دراسة الإنسان ككل بدلا من تقسيمه وظيفيا الى فئات او أجزاء .

03 يجب ان توجه الأبحاث النفسية نحو مشكلات الإنسان الهامة مثل : المسؤولية الشخصية ,أهداف الحياة , الالتزام , تحقيق الذات , الابتكارية , التلقائية , القيم .....الخ.

04 يجب ان يركز علماء النفس على الوعي الذاتي والخبرة الذاتية كأساس لكل الأنشطة الإنسانية .

05 على علماء النفس السعي لفهم الأفراد العاديين وغير العاديين , والأسوياء وغير الأسوياء ,بمعنى التأكيد على التفرد والفردية وليس القوانين العامة للسلوك .

06 على علماء النفس الاهتمام بموضوعات الدراسة أكثر من الاهتمام بأساليب دراستها , لذا فان أساليب البحث المستخدمة في المدرسة الإنسانية تشمل : الطرق الموضوعية , دراسة الحالة , الاستبطان وتحليل الأعمال الأدبية . (دافيدوف 1983 ص 38 ).

ودرس علماء النفس الإنسانيين موضوع تحقيق الذات وهو أعلى حاجة في سلم الحاجات لدى ماسلو ولا يصل إليها الا قلة من الأفراد وهم يتصفون بما يأتي :

* الإدراك الدقيق للواقع .
* تقبل الذات .
* تقبل الآخرين .
* التلقائية .
* التمركز حول المشكلات والسعي لحلها.
* الرغبة الموجبة بالعزلة والخصوصية .
* مقاومة المسايرة .
* شعور قوي بالتعاطف مع الناس ومشاركتهم وجدانيا خلال الأزمات الفردية او الجماعية.
* خبرات الذروة.
* الديمقراطية في القول والسلوك.
* الإبداعية .
* العلاقات الاجتماعية الوثيقة مع قلة من الأفراد .
* روح النكتة الخالية من العداء .
* الاستمتاع المتجدد المستمر في تذوق أساسيات الحياة.
* درجة عالية من الاستقلالية.